

عبودية المسلم عند المصائب

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله السراجي حفظه الله



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ العبوديات عند وقوع المصائب - من المرض والفقر والهَمَّ والغَمَّ والجوع والخوف وفقد الأحبة ونقص الأموال والأنفس والثمرات وغيرها - متنوعةٌ، وهي:

(١) الإيمان بالله والتسليم لقضاء الله وقدره، وهذه عبودية قلبية، فمن اعترض على قضاء الله فقد كفر.

(٢) قول: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، مع اعتقاد معناها من أنَّ قائلها عبدٌ لله يتصرف فيه سبحانه، وهو إليه راجعٌ للبعث والجزاء، فهذه عبودية قولية قلبية.

(٣) حُسْنُ الظنِّ بالله، وهذه عبودية قلبية.

(٤) الحذر من التسخُّط لقضاء الله وقدره.

(٥) الصبر على المقدور، وله أركان ثلاثة: حبس اللسان عن التشكي، والقلب عن التسخط، والجوارح عما يُغضب الله، وهذه عبودية قلبية قولية فعلية.

(٦) الرضا عن الله وبالله وبالمقدور.

(٧) شكر الله على نعمته بالمقدور الذي تُرْفَعُ به الدرجات وتُكْفَرُ به السيئات.

(٨) الإيمان بحكمة الله، فمن آمن بالقضاء والقدر لكن نفى حكمة الله في ذلك فقد كفر.

(٩) الحذر من الظنون السيئة، فمن ظن أن الله ظالم له فيما قدر عليه فقد كفر.

(١٠) الحذر من أن يتهم الله في شيء قضى له به أو لغيره.

(١١) الاستعانة بالصبر والصلاة.

(١٢) الدعاء والتضرع إلى الله في رفع البلاء أو تخفيفه.

وهذا جواب إجمالي، وفيما يلي تفصيل ذلك.



✽ المصائبُ والأمراضُ والهمومُ والغمومُ والأُتْعَابُ التي تصيبُ الناسَ في

هذه الدنيا لا تخلو من أحوالٍ ثلاثةٍ :

الأولى : أن تكونَ عقوبةً على ظلمِ الإنسانِ ومعاصيه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا

أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٠﴾

[سورة الشورى: ٣٠]، وقال **عَلَّامٌ**: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا

أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [سورة النساء: ٧٩]، وقال سبحانه:

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [سورة النساء: ١٢٣].

الثانية : أن تكونَ تكفيراً لسيئاته ومغفرةً لذنوبه، ففي حديثِ أَبِي سَعِيدٍ

الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** أَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ

نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ

يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» متفقٌ عليه.

وفي المسند من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: «ما من شيء يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ فِي جَسَدِهِ يُؤْذِيهِ، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ» صححه الحاكم، وفي الصحيحين حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا؟ قَالَ: «أَجَلُ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُم» قُلْتُ: ذَلِكَ أَنْ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلُ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا» متفق عليه.

الثالثة: أَنْ تَكُونَ رَفْعَةً لِدَرَجَاتِهِ، ودليل هذا ما ثبت في الحديث الصحيح أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَفَضَّلُ عَلَى عَبْدِهِ بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلِهِ، فَيَقْدَرُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَصَائِبِ أَوْ الْأَمْرَاضِ مَا يُوْهِّلُهُ لِبُلُوغِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ، ففي صحيح ابن حبان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَمَا يَزَالُ يَنْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبْلَغَهُ إِيَّاهَا»، أخرجه ابن حبان.

وفي السنن من حديث سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ على قَدَرِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي على الْأَرْضِ وما عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» صححه ابن حبان والحاكم.

وفي صحيح البخاريّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ».

وفي حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عِظْمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظْمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» أخرجه الترمذي، وقال: "حسن غريب"، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية.

❁ إذا حَلَّ بالمسلم مرضٌ أو نصبٌ أو تعبٌ أو غمٌ أو همٌّ أو مصيبةٌ، فيُشرع له أمورٌ:

أحدها: الإيمان بالله والتسليم لقضاء الله وقدره، قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة التغابن: ١١]، فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ بقضاء الله وقدره، ويسلّم لله: يَهْدِ اللهُ قَلْبَهُ ويعوّضه هدىً ونورا وبصيرةً و يقينا، قال علقمة بن وقاصٍ **رَحِمَهُ اللهُ**: «هو الرجلُ تصيبُهُ المصيبةُ فيعلمُ أنها من عندِ الله فيرضى ويسلّم»، فيجبُ على المسلم اعتقادُ أنَّ ما يقعُ في هذا الكونِ بقضاءِ الله وقدره وأنَّ المصائبَ من الله سبحانه. وهذه عبوديةٌ قلبيةٌ.



الثاني: أن يقول: "إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة البقرة: ١٥٥-١٥٧]،

فذكر الله تعالى في فضل هذه الكلمة ثلاثة أمور: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(١٥٧) ومعنى الصلاة من الله على عبده: ثناؤه عليه في الملاء الأعلى، وهي الأمر الأول. والأمر الثاني: الرحمة. والأمر الثالث: الهداية.

فالمؤمنون يتسلَّون بهذه الكلمة العظيمة، ومعناها: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: إنا ملكٌ لله، وعبيدٌ له، يتصرفُ فينا كيف يشاءُ بمقتضى علمه وحكمته، فلهُ سبحانه الحكمةُ البالغةُ في خلقه، وفي قضائه وقدره، وفي شرعه، وفي أمره ونهيه.

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: في الدارِ الآخرة، وهذا فيه تنبيهٌ للإنسان بأنه إذا علم أنه راجعٌ إلى الله: أن يستعدَّ للقاءِ الله تعالى بالعملِ الصالحِ حتى يحصلَ على الجزاءِ الحسنِ.

وقد وردَ في فضل هذه الكلمة عند المصيبة قولُ الرسول ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا آجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» أخرجه مسلم، فهذه عبوديةٌ قلبيةٌ قوليةٌ.

الثالث: أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْمَصِيبَةِ، فيحبس نفسه عن الجزع، ويُمسك لسانه عن التشكي، ويمنع جوارحه عما يغضب الله، وهذه عبودية قلبية قولية فعلية، ولَمَّا دخل النبي ﷺ على أبي سلمة رضي الله عنه وقد شقَّ بصره فأغمض عينيه، فَضَجَّ ناسٌ من أهله فقال: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ» أخرجَه مسلم.

والصبرُ على المصيبة واجبٌ، قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة التغابن: ١١]، أي: مَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوّضه عما فاتهُ من الدنيا هدى في قلبه وبقينا صادقًا، وقد يُخلفُ الله عليه ما كان أُخِذَ منه أو خيرًا منه.

الرابع: الرضا عن الله وبالله وبالمقدور، والرضا بالمصيبة ليس بواجب، بل مُستحبٌّ في أصحِّ قولِي العلماء، وفيه الأجر والثواب من الله.

الخامس: شكر الله على نعمته بالمقدور الذي ترفع به الدرجات، وتكفر به السيئات.

فمن الناس - وهم الخواص من عباد الله - من يعدّون المصيبة نعمة يشكرون الله عليها؛ لأن العبد يوافق ربه فيما أرادَه وقضاهُ، وفيما أحبه وارتضاهُ؛ ولأنه يكفر بالمصيبة السيئات، وترفع بها الدرجات، فتكون من النعم، وكذلك المحن في حقهم تكون منحةً ونعمًا يشكرون الله عليها، وهذا لا يقدر عليه إلا خواص المؤمنين كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة فصلات: ٣٥].

وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَع، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وفي حديث صُهِيبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ» أخرجه مسلم.

السادس: أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْكَوْنِ قَدْ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ وَقَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ، وَكَتَابَتُهُ لَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فَمَنْ اعْتَقَدَ خِلَافَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ؛

لأنه مكذب لله في قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

﴿سورة يس: ١٢﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ

وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلُ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى

اللَّهُ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ [سورة الحديد: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿* وَعِنْدَهُ

مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا

رَطَّبَ وَلَا يَابِسَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [سورة الأنعام: ٥٩]،

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا

كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ [سورة الأنبياء: ٩٤]،
 وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ
 الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥]،
 وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا
 وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ [سورة
 هود: ٦]، وقوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [سورة
 الأنعام: ٣٨].

ولحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عند مسلم: «كَتَبَ اللَّهُ
 مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ،
 قَالَ: وَعَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ»، وحديث عمران بن حصين رضي الله عنه: «وَكُتِبَ فِي
 الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ» أخرجه البخاري.

ومراتب القدر أربع يجب الإيمان بها كلها، فمن أنكر واحدة منها فقد
 كفر، وهي:

علم الله الأزلي، وكتابته له في اللوح المحفوظ، وإرادته ومشيئته،
 والخلق والإيجاد.

السابع: أن يعلم أن الله تعالى قدر المصائب لحكمة؛ لأنه سبحانه حكم يضع الأشياء في مواضعها.

فمن اعتقد خلاف ذلك وأن الله ليس له حكمة في قضائه وقدره، بل يفعل ويقدر بمجرد المشيئة المحضة من غير حكمة ولا سبب ولا تعليل، وأن المشيئة الإلهية تخطئ خطأ عشواء، فتفرق بين المتماثلات، وتجمع بين المتفرقات، من غير حكمة ولا علة، ولا سبب أصلاً؛ كما يعتقد ذلك الجبرية من الجهمية والصوفية، فمن اعتقد هذا فهو كافر؛ لأنه متهم لربه بالنقص والعيب وأنه يتصرف في الكون بلا حكمة، والمخلوق العاقل لا يتصرف إلا بحكمة، فكيف بالخالق الحكيم الذي سمى نفسه بالحكيم المشتمل على وصفه سبحانه بالحكمة، فمن أنكر حكمة الله في خلقه، أو في شرعه، أو في قضائه وقدره، فهو مكذب لله في إخباره عن نفسه بأنه حكيم، وهذا كفر وضلال.

وهذا كفر بالنوع لا بالعين، أما المعين فلا يكفر حتى توجد الشروط وتتنفي الموانع، وتقوم عليه الحجة.

الثامن: أن يُحسنَ ظنُّه بالله، ويعلمَ أنَّ المصيبةَ من الله، واللهُ تعالى عندَ ظنِّ عبدهِ بهِ، إنَّ ظنَّ خيرًا فلهُ، ولا يموتُ أحدٌ إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ بربهِ، ففي صحيح مسلمٍ عن جابرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ».



التاسع: الحذرُ من الظنونِ السيئةِ التي لا تليقُ باللهِ تبارك وتعالى، كما قَالَ عجل في سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤].

وقَالَ تعالى في سورةِ الفتحِ: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنٍّ أَلَسَّوْهُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة الفتح: ٦]، وَقَالَ في السورةِ نفسها: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا أَلَسَّوْهُ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [سورة الفتح: ١٢].

وقَالَ في سورةِ فصلت: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ [سورة فصلت: ٢٢-٢٣].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [سورة
الصافات: ٨٧].

فظنُّ المنافقين والكفار في سورة آل عمران وفي سورة الفتح فُسِّرَ بأنَّ اللهَ
سبحانه لا ينصرُ رسوله ﷺ وأنَّ أمره سيضمحلُّ، وفُسِّرَ بأنَّ ما أصابه لم
يكنْ بقدرِ الله وحكمته، فأنكرَ القدرَ، وأنكرَ الحكمةَ، كما أنكرَ أن يُتِمَّ
أمرَ رسوله ﷺ، وأنَّ يُظهره اللهُ على الدين كله.

وأما ظنُّ المشركين في سورة فصلت فبيَّنَ اللهُ ذلكَ بقوله: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ﴾
أي: بارتكابكم المعاصي ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾،
فلذلكَ تماديتُم في الكفرِ والعنادِ والمعاصي، فمَنْ ساءَ ظنُّه باللهِ ساءَ
عملُهُ؛ فساءتْ عاقبتهُ.

وأما الظنُّ في سورة الصافات، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾، أي: فما ظنُّكم برَبِّ العالمين أن يفعلَ بكم وقد عبدتم معه
غيره، وهذا ترهيبٌ لهم بالجزاءِ بالعقابِ على شركهم، وما الذي ظننتُم
برَبِّ العالمين من النقصِ حتى جعلتم له شركاءَ وأندادًا.

والظنون السيئة أنواع كثيرة لا تنحصر، فمنها: ظنُّ اعتراضٍ على الله في حكمه بكذا، في إعطائه المُلْكَ لفلانٍ، أو المالَ لفلانٍ، أو العقلَ لفلانٍ، ومنها اعتراضٌ على الله فيما يقعُ وفيما يقدرُهُ، ومنها اعتراضٌ على الله في شرعه، ومنها التعنُّتُ على القدرِ واللومُ له، وأنه كان ينبغي أن يكونَ كذا وكذا، فمُسْتَقِلٌّ ومستكثرٌ، ومنها قولهم: فلانٌ يستأهلُ أن يُعطى كذا، وفلانٌ لا يستأهلُ.

تنبيه: هذه الظنون السيئة كامنةٌ في النفوسِ قلَّ مَنْ يَسْلُمُ منها، فعلى العبدِ أن يتفقدَ نفسه وأن يستخرجَ ما فيها، بجهدِ نفسه على حسنِ الظنِّ بالله، وتعظيمِهِ وقدرِهِ حقَّ قدرِهِ، وعليه التوبةُ والاستغفار.

قال ابنُ القيم **رحمَهُ اللهُ**: «وأكثرُ الناسِ يظنونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم وفيما يفعله بغيرِهِمْ، ولا يسلمُ من ذلك إلا مَنْ عرفَ اللهَ وعرفَ أسماءَهُ وصفاتِهِ، وعرفَ موجبَ حمدِهِ وحكمتِهِ، فمن قنطَ من رحمتهِ وأيسَ من رَوْحِهِ فقد ظنَّ بهِ ظنَّ السَّوءِ».

ثم قال **رحمَهُ اللهُ**: «ولو فتَّشتَ مَنْ فتَّشتَ لرأيتَ عندهُ تعبُّبًا على القدرِ وملامةً له واقتراحًا عليه خلافَ ما جرى بهِ، وأنه كان ينبغي أن يكونَ كذا وكذا، فمُسْتَقِلٌّ ومستكثرٌ، وفتَّشْ نفسك هل أنتَ سالمٌ من ذلك؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ نَاجِيَا
فَلْيَعْتَنِ اللَّيْبُ النَّاصِحَ لِنَفْسِهِ بِهَذَا الْمَوْضِعِ، وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرْهُ
كُلَّ وَقْتٍ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوِّءِ».



العاشر: الحذر من أن يتهم الله في شيء قضى له به أو لغيره، فمن اتهم الله تعالى واعتقد بأنه ظالم له أو لغيره بما يجري عليه من الأقدار فهو كافر؛ لأنه عدو لله حيث اعتقد أن الله ظالم له، والظالم عدو للمظلوم فيكون كافرًا، ولا ينفعه صلاة ولا صوم ولا غيرهما، ولأنه مكذب لله تعالى في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة النحل: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الزخرف: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سورة النساء: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: ٤٩].

وقول الرب سبحانه في الحديث القدسي من حديث أبي ذرٍّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «يَا

عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا» أخرجه مسلم.

والواجبُ على العبد أن يعتقد أن الله عادل لا يجرُّ، فهو الحكمُ العدلُ في أحكامه القدرية، وفي أحكامه الشرعية، وفي أحكامه الجزائية. وأحكامُ الله القدرية: هي الأقدارُ التي يُجريها الله في خلقه في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة.

وأحكامُ الشرعية هي الأحكامُ التي شرعها لعباده في كتبه المنزلة على أنبيائه وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأحكامُ الله الجزائية: هي الأحكامُ التي يحكمُ بها سبحانه بنفسه على خلقه يوم القيامة.



الحادي عشر: الاستعانة بالصبر والصلاة.

فقد أمر الله تعالى بالاستعانة على أداء أوامره وترك معاصيه بالصبر والصلاة، قال **عَلَّكَ**: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿١٥٣﴾ [سورة البقرة: ١٥٣]، قال عمرُ بنُ الخطاب **رضي الله عنه**: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر» أخرجه البخاري معلقًا،

ووصله الإمام أحمد في الزهد بسند صححه ابن حجر.

ومنزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد، فمن لا صبر له، لا إيمان له، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له».

فالمسلم يستعين على أداء الواجبات وترك المحرمات بالصبر، فيصبر على طاعة الله حتى يؤديها، ويصبر عن محارم الله حتى يتركها، ويصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يسخطها.

وكذلك يستعين بالصلاة، فإنها تُعين المسلم على أداء الواجبات، وترك المحرمات، ومن المحرمات: التسخط لقضاء الله وقدره وعدم التسليم لأمر الله، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى، ويقول: «يَا بَلَاءُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»، ففي الصلاة راحة وإعانة.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعي إليه أخوه قثم رضي الله عنه وهو في سفر، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق، فأناخ فصلّى ركعتين أطال فيهما

الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [سورة البقرة: ٤٥]،

فالوصية بالصبر والصلاة شاقة وصعبة إلا على الخاشعين الذين رزقهم

اللهُ الخشوعَ والإيمانَ، والإنابةَ لله **عَلَيْكَ** والخضوعَ والاستكانةَ لله **عَلَيْكَ**، وفي الصَّلَاةِ من ذكرِ الله تعالى ودعائه وتلاوةِ كتابه وإخلاصِ الدِّينِ لَهُ والتوكُّلِ عَلَيْهِ، ما يحصلُ بِهِ اليقينُ والثباتُ وقرَّةُ العينِ، ودفعُ الهمِّ والحزنِ، وكذلك في الصبرِ القوَّةُ والثباتُ.



الثاني عشر: أن يدعو الله وأن يتضرع إليه أن يكشف ما حلَّ به من المصيبة،
من مَرَضٍ أو هَمٍّ أو غَمٍّ أو تَعَبٍ، أو كانت المصيبة موتًا، أو نقصًا من الأموال أو الأنفس أو الثمرات.

وَمَنْ دعا الله فَإِنَّ اللهَ يَأْجِرُهُ فِي مَصِيبَتِهِ، وَيُخَلِّفُ عَلَيْهِ خَيْرًا.

وإذا لم يستجب له فلاحد أمرين:

أحدهما: تخلفُ وفقدُ سببٍ من أسبابِ استجابة الدعاء، أو وجودُ مانعٍ من موانعِ قبولِ الدعاء، كأن يدعو بإثمٍ أو قطيعةٍ رحمٍ، أو يكونَ معتديًا في الدعاء، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

﴿سورة الأعراف: ٥٥﴾، ومثالُ تخلفِ بعضِ الأسبابِ لاستجابة الدعاء:

كأن يدعو بقلبٍ غافلٍ لاهٍ، أو لم يحمِدِ الله ولم يُصَلِّ على نبيه **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ومن الأسبابِ أن يكون متوضئًا، مستقبلَ القبلة، رافعًا يديه.

الثاني: الثاني: أن يكون قد استُجيب للداعي بغير ما دعا به؛ بأن يعطيه الله خيراً مما سأل ودعا به؛ فان السائل إذا لم يَعْتَدِ في دعائه: إما أن يُستجاب له.

وإما أن تَدَّخِرَ له في الآخرة.

وإما أن يُصرف عنه من السوء مثلها.

كما في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مُسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قَطِعةٌ رَحِمَ إِلَّا أعطاه اللهُ بها إحدى ثلاثٍ: إمّا أن يُعَجِّلَ له دَعْوَتَهُ، وإمّا أن يَدَّخِرَها له في الآخِرَةِ، وإمّا أن يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا».

طبقاتُ الناسِ تجاهَ المصائبِ أربعٌ:

الطبقةُ الأولى: الجازعونُ الساخطونَ، الذينَ يَسْخَطُونَ فلا يَصْبِرُونَ، وهؤلاءِ آثمونَ، فلا يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتَسَخَّطَ قضاءَ الله وقدرَهُ، بأنْ يكونَ في نفسِهِ جَزَعٌ وهَلَعٌ، فلا يَحْبِسُ نَفْسَهُ عن الجَزَعِ، ولا لسانَهُ عن التشكِّي، ويعمَلُ بجوارحِهِ ما يُغْضِبُ اللهَ، فهذا آثمٌ ومرتكبٌ لكبيرةٍ من كبائرِ الذنوبِ.

الطبقةُ الثانيةُ: الصابرونَ، الذينَ يصبرونَ على المصائبِ لكنهم لا يرضونَ بها، فالصبر واجب.

الطبقةُ الثالثةُ: الراضونَ عن الله وبالله وبالمقدورِ الذي قدره في خلقه، وهذا مستحب.

الطبقةُ الرابعةُ: الشاكرونَ، فهم قد صبروا على المصائبِ، ثم رَضُوا بها، ثم شكروا اللهَ عليها، فاعتبروها نعمةً، يرجون بها تكفيرَ سيئاتهم ورفعَ درجاتهم، وهذا لا يقدرُ عليه إلا خواص عباد الله الموفّقونَ، والموفّقُ من وفّقه اللهُ، فنسألُ اللهَ أنْ يجعلنا من الموفّقينَ الصابرينَ المحتسبينَ الراضينَ الشاكرينَ.

وبالله التوفيقُ.....،،،،،

وصلّى الله وسلّمَ على نبيّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعينَ.

وكتبه

عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن الراجحي

٢٤ / ٥ / ١٤٤٤ هـ